حسني إمام

جبل المغناطيس

نسمات الصباح تصفع وجهي ـ الصفع كل شيء .. حتى اعماقي .. والشمس خيوط وليدة .. لا تستطيع ان تبعث الدفء في اوصالي المرتجفة والباردة .

قالت لي ونحن في الطريق والسكون يلف كل شيء .. والظلام لا يزال سادرا .. شير اب cheer up . عيناي كانتا مغلقتين. وروحي كانت مطفأة هي الاخرى ـ ينبغي ان تسلمي بالهزيمة .. ان كل شيء داخلك يقول انك قد هزمت ـ لقد خسرت حتى نفسك وقلبك ـ لم استطع ان ارد عليها حاولت ان اقول شيئا ـ . لا .. لا شيء ـ الظلام والبرد .. وخطوات متثاقلة من حولنا ـ بعض الناس خرجوا الى الشارع ولكن خطواتهم ايضا تشير الى انهم لا زالوا نياما .. مثلي ـ لم يستيقظوا ـ الهواء يصقعني ـ . كانت جلستنا هناك دائما ـ النيل والليل الذي كان يحبه ـ لانه كان يذكره بخيوط شعري .. عيناي لم تكونا تجرؤان كثيرا على التحديق في عينيه .. لم تكن بحاجة الى ان نتكلم ـ قال العراف .. لن يستمر ذلك طويلا ..

عالم الخرافة لا يزال يحكمنا ـ كل كلمة قالها الرجل العجوز تتحقق الان ـ احذري المستقبل ـ ينبغي ان يكون المرء اكثر حذرا هذه الايام ـ ولكنني لم اكن حذرة ـ لقد انتهى كل شيء ـ بل سينتهي بعد لحظات ..

الرمال الناعمة تمتد وتمتد ـ صفراء ـ وجو الصحراء يخيفني ويثيرني وانبهر به . مع ذلك احس بالظمأ ـ بالرغم من انني لست بحاجة الى الماء ـ واحس بالجبل يرتفع امامي ـ عملاقا شاهقا ـ لا تكاد عيناي تصلان الى آخره ـ جبل المغناطيس الهائل الذي كان يحدثني عنه دائما ـ يرتفع ـ ويجذب اليه كل شيء .ـ وشعابه ممتددة وسكونه مهيب .. ورماله ايضا صفراء .

انتهى كل شيء .. ارتفعت الطائرة بعيدا في الافق .. صارت مجرد نقطة .. الصباح اكتمل نوره ولكن الظلام كان لا يزال امامي ـ نقطة مضيئة وحيدة تتحرك .. بعيدا .. قلبي يرتفع معها ولا استطيع ملاحقتها .. لدي رغبة عارمة في ان اتجمد مكاني وينتهي كل شيء ـ ابريل اقسى شهور العام تختلط فيه الرغبة ـ بالذكرى ـ الارض الميتة ستنبت زهور الليلاك . « الارجوانية » التي اعبدها ولكن هل تنبت الزهور فوق جبل المغناطيس .. انه يجذب كل شيء امامه هكذا كان يقول لي دائما .. نحن ننجرف ـ ننجرف اليه ـ لن نستطيع ان نقاوم جاذبيته ـ لانه اقوى ـ اقوى من كل ما حوله .. ـ ولكن ماذا تقول امواج البحر .. ان صوتها في اذني ـ والزبد يعلو كل شيء .. واكاد اصاب بالدوار وهو يمسك برأسي بين يديه ..

لاتخافي ـ انك بحاجة الى هذا الدوار لكي تفيقي بعد ذلك ـ كالصدمة الكهربائية التي تؤلم ولكنها تجعلنا نفيق بعد ذلك ..

لم يقل سوى كلمات قليلة .. السفر ضرورة .. ولكني لم اكن اصدق انه سينفذ ما ينويه .. شيء يزحف على قلبي .. قالت لي شير اب .. انت بحاجة الى كوب من الشاي الساخن ـ

في المطار جلسنا نشرب الشاي ولكنه لم يكن ساخنا ـ كان فاترا مثل كل شيء ـ وكنت افتح عيني بصعوبة ـ كنت اعتقد ان جبل المغناطيس الهائل سيشده في اخر لحظة وبكل قوة ليعيده الي مرة اخرى ـ ينبغي ان يكون المرء حذرا هذه الايام .. لم يكن يحب الكلام الكثير ـ ولكنه قال لي ذات مرة .. انها حالة .. مزاج نفسي.. لا اعتقد انه سيستمر . تعود ربما يضع خاتمة له عدم التعود من جديد ـ الرمال الناعمة تمتد .. وتمتد والافق تراب .. والكلمات قليلة .. والجبل الهائل يرتفع ويتحرك مثل السحاب ـ في يوم مطير ـ الجو الرمادي ـ اعشقه ـ يثيرني ـ يهز أعماقي ـ السماء دموعها دافئة هي الاخرى ـ ولكنها احيانا تكون دموعا باردة . ثلجية ـ كل شيء في هذا العالم زائف .. اجوف . كان يمشي في دمائي .. الشعاب الهائلة لهذا الجبل ترتفع الى عنان السماء تعانق السحاب .. ان لديه المقدرة على ان يجذب كل شيء يمر في طريقه .

نحن نحاول ان نتفادى هذا الجبل الاسطوري .. ضحكته رائعة .. تغسل روحي .. السفينة لن تتحطم اذا اقتربت من هذا الجبل . بل ستنجذب اليه ـ المهم ان تكوني دافئة من الداخل..هكذا كان يقول لي دائما ـ يدك باردة جدا .. ولكن اعماقك دافئة .. لانك تحبين ـ مسامير السفينة تنجذب الى هذا الجبل المغناطيسي ـ

ولكن الطائرة ارتفعت واختفت تماما والصحراء امامي طويلة ـ صفراء .. اغلقت عيني . كنت لا ازال ارى اللون الاصفر داخلهما .. ولكني لم اكن اشعر بانني حرة طليقة في الصحراء ـ كانت روحي مقيدة مشدودة ـ

لن تكون هناك نهاية اخرى لما بيننا ـ الحب وحده لا يكفي ـ كان يقول لي دائما لا زلت صغيرة يا طفلتي ـ لن ينتهي كل شيء الان ـ لا زال امامك الكثير .. انا لا شيء سوى الوهم ولكنك لن تعيشي في الوهم على الدوام ـ سيجذبك جبل المغناطيس يوما ..

في المنزل كانت امي جالسة كعادتها على الاريكة ـ لماذا خرجت في مثل هذه الساعة المبكرة .. انك لا تستيقظين قبل الساعة العاشرة من النوم ـ لم اكن اود ان ارد ـ كانت الطائرة ترتفع من جديد ـ ولكنه لم يقل لي ـ وداعا . تفادى حتى ان يسلم علي ـ اكتفى بان يلوح لي بيده ـ وهو يبتعد ـ وابتسامة على وجهه تعدل كل شيء لقد نفذ ما اراد ـ احذري المجهول يا فتاتي قالها الرجل العجوز.

سيحضر الليلة سامح يا ابنتي ولكن لماذا الليلة بالذات ـ لن اقابل احدا ـ

ولكنني جلست كالصماء البكماء بينهم ـ الى ان قال عمي ـ الاستاذ سامح مهندس جيولوجي يعمل في الصحراء ـ عمله في الجبال دائما وانت تحبين هذه الحياة ـ

ولكن وجهه لم يكن وجه حبيبي ـ كان ممسوخا ـ كئيبا ـ وكرهته مع انني لا اعرفه من قبل ـ ولم يتكلم حتى معي ـ وارتفع من جديد امامي جبل المغناطيس الهائل الاسود ـ وتجرأت قليلا وسألته .. هل تعرف شيئا عن جبل المغناطيس .

وانخرط الجميع في ضحكات عالية الا هو .. كان وجهه بلا تعبير ـ هكذا هي خيالية دائما يا بني ـ تعشق الاوهام والخرافات ـ وسحبت نفسي مسرعة من بينهم بينما كان يقول بصوت اجش : .. الواقع ان الاساطير لا تصنع الحياة فقد علمتني الجيولوجيا ذلك ـ واندفعت بعيدا وانا لا اود ان اسمع بقية كلامه ـ الذي اصابني بالخوف .. كانت الطائرة ترتفع امامي من جديد .. بعيدا .. بعيدا نقطة مضيئة غائمة ووددت لو صعدت اليها ـ ولكن جبل المغناطيس كان يرتفع هو الاخر شاهقا يكاد يصل الى ارتفاع الطائرة ويجذبها اليه .

القاهرة